خطابية الشعر عند شعراء الفرق الاسلامية في العصر الاموي

د. بدران عبد الحسين محمود
استاذ مساعد
كلية التربية/جامعة كركوك

ملخص البحث

خطابية الشعر عند شعراء الفرق الإسلامية في العصر الأموي

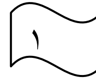
تعنـي خطابيـة الشـعر تواجـد عناصـر الخطابـة المتمثلـة بالإقنـاع القـائم علـى الادلـة والبـراهين واستعمال الصيغ الخطبية بشكل مؤثر فـي الشـعر ، وهـذا ينـدرج ضـمن تجانس المكونـات المختلفة للأدب وتداخله ولقد أشار النقاد القدماء إلى هذه الظاهرة بوصفها ظاهرة منتشرة في الشعر ولاسيما الشعر السياسي الذي تطغـى عليـه الفكـرة السياسية والـذي يعد شـعر الفـرق الإسـلامية إنموذجاً لهذا الشعر ، ومن هنـا فـإن البحـث محاولـة لتسليط الأضـواء علـى هـذه الظـاهرة والكشـف عـن مضـامين التداخل والتكامل الحاصل بين الأجناس الأدبية ، ولا سيما بين الخطابة والشعر .

المقدمة

****

النص الادبـي بنيـة معقدة تتشـاكل فيهـا ظـواهر مختلفـة وتتضـافر فيهـا مقومـات متعددة بغيـة الوصول الى إنتاج يلقى الاستحسان . والاجناس الادبية وان تعددت فإنها تحتوي على قاسم مشترك يميز الادب عن غيره من الفنـون والعلـوم ، ويقـوم هـذا القاسم علـى مميزات تجعـل مـن الـنص ادبـاً وتواجدها في أي نص يضفي عليـه الادبيـة فـي شـكلها العـام كمـا ان نسبة تواجـد مقومـات أي جنس يضفي على النص هيمنة ذلك الجنس علـى وجـه الخصـوص وضـمن إطـار الـدائرة الأدبيـة ، وعلـى وفق نظرية الأجناس الأدبية قُسمت الفنون الأدبية الى قسمين رئيسيين يحوي كل قسم علـى فـروع متعددة وهمـا الأجنـاس الشـعرية والأجنـاس النثريـة ولكـل منهـا خصـائص تميزهـا عـن الأخـرى ، مـع وجود المشتركات بينهمـا ، ومـن ثـم فـأن الشـعر يحتـوي قـدراً مـن النثريـة وبالمقابـل فـأن النثـر يحتـوي قدراً من الشعرية التـي هـي الأسـاس للبنـاء الشـعري ، ولكـن الشـعرية لا تـوازي النثريـة فـي النثـر كمـا ان النثرية لا توازي الشعرية التي يحتويها الشعر ، وعلى ضوء هيمنة هذه او تلك تضفي المسميات على الفنون شعرية كانت ام نثرية .

ولقد فتحت هذه المسألة أبوابا واسعة في الدراسات الحديثة ، وإن كـان النقاد القدماء قد أشـاروا إليهـا في دراساتهم النقدية المختلفة إلا إن الدراسـات الحديثـة قد جعلـت لهـذه القضـية دراسـات مسـتقلة حيـث دُرست قضية الاتجاهـات القصصـية فـي الشـعر قديمـه وحديثـه ، كمـا دُرسـت الشـعرية فـي القصـص والروايات ، ولم تغفل الدراسات النزعة الدرامية في الشعر والـدراما الشـعرية ، ولكـن وجـود نزعـة الخطابـة في الشعر لم ينل تلك المساحة الواسـعة علـى الـرغم مـن أهميتـه وبـروزه بشـكل واضـح فـي الشعر العربي وعلى مرِّ عصوره المتعاقبة .



من هنا فإن البحث يحاول تسليط الأضواء على ما يمكن تسميته بخطابية الشعر ، وهي محاولة لإثبات التجانس بين أجناس الأدب المختلفة وذلك من خلال توضيح مفهوم الخطابية ومقوماتها والغرض من تواجدها في ثنايا الشعر الذي يعتمد اللغة الشعرية ، ومدى قدرة المنتج في توظيف تلك النزعة من اجل الوصول الى التكامل الجمالي والفكري للنصوص الشعرية من جهة وما تفرضه المتعاليات النصية المحيطة بالنص من جهة أخرى .

التمهيد

****

الخطابة والشعر في المفهوم الاصطلاحي :

بغية التحري عن ماهية خطابية الشعر ينبغي تسليط الضوء على مفهوم الخطابة ومفهوم الشعر وعقد الصلة بين الجنسين الأدبيين ليتسنى للمتلقي ان يكشف التجانس والتداخل بين القولين الشعري والخطابي .

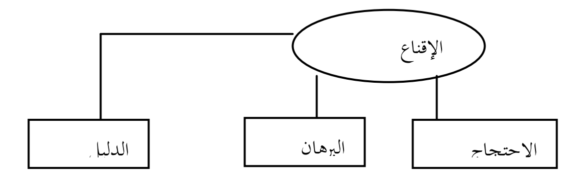
ويجب ان لا يفهم من خطابية الشعر الخطاب الشعري او شعر المخاطبة او التخاطب في الشعر ، لان الخطاب الشعري يعني القول الشعري وشعر المخاطبة هو الشعر الموجه الى مجموعة مقصودة بالتخاطب ، والتخاطب في الشعر يعني الحوار الشعري او المحاورة الشعرية ، ولكل موضوع من تلك الموضوعات آلياته ومميزاته وإشكاله وهي ليست موضوع بحثنا .

وانما موضوع بحث خطابية الشعر هو نسبة تواجد آليات فن الخطابة في فن الشعر واثر ذلك التوجه الشعري شكلاً ومضموناً . فما هي الخطابة وما هو الشعر وكيف يحدث التواصل والتداخل بين الجنسين ذلك ما نحاول الإجابة عليه .

الخطابة كما يراها أرسطو هي ((الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان))١ وهو بذلك قد جعل من الإقناع ركيزة أساسية للخطابة والإقناع لابدَّ وان يقوم على ركائز ودعائم تصديقية يقبل بها السامع ويطمئن إليها ، والدعائم كما يراها الباحث هي إقامة الحجة والبرهان على صحتها وإثبات القول بتلك الحجج او تلك البراهين .

ولم يخرج النقاد العرب عن إطار تعريف أرسطو للخطابة ، فأبن سينا يعرف الخطابة بقوله ((الخطابة قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحدٍ من الأمور المفردة))٢ وهو بهذا التعريف قد جعل من فن الخطابة قولاً قوامه الإقناع في جزيئات الموضوع من اجل الإثبات الشامل . كما يورد ابن البناء المراكشي تعريفاً لا يختلف عن التعريفين السابقين حيث يرى في الخطابة ((أقوال مقبولة يحصل فيها الإقناع))٣ ولكي تكون الخطابة ممكنة ومقبولة لابدَّ وان تقوم على الدعائم الأنفة الذكر مع مراعاة الحالات النفسية والتوجهات الفكرية لجمهور المتلقين . ويمكن ان نستنتج مما ذكر آنفاً أن :

الخطابة =



اما الشعر فلا نكاد ان نجد له تعريفا جامعاً مانعاً وذلك بسبب اتساع حدوده وكثرة الزوايا التي نظر النقاد من خلالها إلى الشعر فهو ((الكلام المنظوم البائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم))٤

كما يرى ابن طباطبا ((وهو الكلام الموزون المقفى))٥ كما يراه قدامة بن جعفر ، في كلا التعريفين تركيز على الإيقاع بوصفه ظاهرة تتمثل بالتناغم الصوتي المنسجم مع النظام الإيقاعي الممكن تمييزه عما هو مرسل من الكلام المنثور .

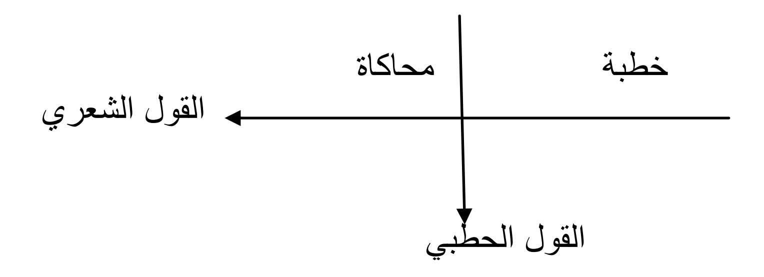
ولم يغب عنهما الدور الدلالي للألفاظ فلقد تحدث ابن طباطبا عن اختيار الألفاظ وتحدث قدامة عن ائتلاف اللفظ مع الوزن متأثراً برأي الجاحظ الذي سبقه في توضيح هذا الجانب بقوله ((ان البناء الشعري قائم على إقامة الوزن وتخيّر اللفظ))٦ ولقد أضاف القرطاجني عنصراً مهماً في البناء الفني للشعر الا وهو الخيال اذ قال ((ان التخييل هو قوام المعاني الشعرية))٧ ومن ذلك يمكننا القول ان الشعر هو عملية ((تسليط نظام إيقاعي على نظام لغوي))٨ في جو قوامه الخيال ، وتتمثل عملية الإبداع فيه على دقة التسليط الإيقاعي والاختيار الدلالي وخلق الأفاق التي يمكن ان تحدث في ظلالها عملية التزاوج والبناء إلى الدرجة التي تجعل من هذا الخطاب سراً يتميز فيه عن الخطابات الأخرى وذا قابلية واسعة في التأثير والانتشار .

وهذه القابلية تجعله يزاحم النصوص الأدبية الأخرى وينفذ الى بطانتها محدثاً بذلك شعرية تلك الأجناس . وبالمقابل فإن للأجناس الأدبية الأخرى قابلية في التأثير والاختراق الذي يتولد عنه اختراق النسيج الشعري لتظهر علامات ذلك الجنس الأدبي بارزة على امتداد هذا النسيج .

ولما كان البحث يركز على خطابية الشعر فأن ذلك يقتضي الكشف عن تلك العلامات الخطابية التي تظهر في البناء الشعري وعملية التمازج بين الجنسين حيث يتداخل الشعر مع الخطابة في مواقف عديدة لعل من أبرزها اعتماد الخطبة المعاني الشعرية من خلال ((الاستعانة بالتخيل والتصوير لاستثارة العاطفة وإيقاظ الوجدان))٩ واعتماد الشعر المعاني الخطابية من خلال الاستناد الى الحجج والبراهين واستعمال الاقيسة العقلية التي هي من صميم النسيج ألخطبي .

ولقد تنبه القدماء الى هذه القضية واقروا بها ويمكن تلخيصها بقول الفارابي ((وربما غلط كثير من الخطباء الذين لهم من طبائعهم قوة على الأقاويل الشعرية فيستعملون المحاكاة أزيد مما شأن الخطابة ان تستعمله غير أنه لا يوثق به فيكون قوله ذلك عند كثير من الناس خطبية بالغة وإنما هو في الحقيقة قول شعري قد عدل به عن طريق الخطابة الى طريق الشعر ، وكثير من الشعراء الذين لهم أيضا قوة على الأقاويل المقنعة يضعون الأقاويل المقنعة ويزنونها فيكون ذلك عند كثير من الناس شعراً وإنما هو قول خطبي عدل به عن منهاج الخطابة ، وكثير من الخطباء يجمع في خطبته الأمرين جميعاً وكذلك كثير من الشعراء))١٠ .

والملاحظ من هذا الرأي ان الفارابي أقام فكرته حول الموضوع على مبدأ المحاكاة متتبعاً بذلك رأي أرسطو حول موضوع الشعر والذي يرى ان المحاكاة ركيزة الشعرية ، كما جعل الفارابي الإقناع ركيزة للخطابة وبالتالي فأنه يرى وجود المحاكاة في الخطبة تجعل منها الأقرب الى القول الشعري كما أن وجود الإقناع في الشعر تجعل منه الأقرب الى القول ألخطبي .



ولكن هذا الأمر بحاجة الى تفاصيل توضح وجود عناصر الخطابة في الشعر بحيث تقربه من القول ألخطبي ، ولكن قبل الخوض في هذه التفاصيل نحاول ان نلقي نظرة على أسباب انتشار هذه الظاهرة لدى شعراء الفرق الإسلامية في العصر الأموي .

عوامل ازدهار النزعة الخطابية لدى شعراء الفرق الاسلامية

****

يمكن إجمال عوامل انتشار النزعة الخطابية لدى هؤلاء الشعراء بما يأتي :

١- تطور النزعة العقلية تماشياً مع التطور الحاصل في أنظمة الحكم ومع التطور في العلوم المختلفة ولا سيما العلوم الشرعية القائمة على المحاججة والبراهين وصولاً إلى الإقناع وهذا ينسجم مع روح الخطابة القائمة الحجة والإقناع ، ولقد انعكس ذلك على الشعر داعماً النزعة الخطابية فيه .

٢- تعدد الفرق الإسلامية في العصر الأموي واختلاف آرائهم ومحاولة كل فرقة إثبات صحة ما تدعو إليه وهذا يتطلب إقناع المتلقين ومحاولة كسبهم مما حدا بكل فرقة ان توظف طاقات شعرائها في خدمة أهدافها إلى الدرجة التي جعلت الكثير من قصائدهم وكأنها خطب خضعت لقوالب الوزن والقافية .

٣- جمع الكثير من شعراء الفرق الإسلامية بين فنّي الشعر والخطابة فمنهم شعراء وخطباء في الوقت ذاته أمثال الكميت والطرماح وعمران بن حطان وقطري بن الفجاءة وغيرهم كثير وهذا ما جعل شعرهم وخطبهم تتزاوج فيما بينها تزاوج الإيقاعي مع اللغوي ألمحاكاتي مع الاقناعي في عملية تداخل أسهمت في ازدهار النزعة الخطابية في شعر الفرق الإسلامية .

٤- لقد أصبح الشاعر في العصر الأموي يحمل ثقافة عقائدية وسياسية وتاريخية وفرتها له الدولة الإسلامية باتساعها وتنوع قومياتها وثرائها الفكري ولم يعد مكتفياً بتحريك مشاعر المتلقي وإظهار الصور الجمالية المؤثرة وإنما تجاوز ذلك الى تحريك الأفكار وإقناع الآخرين بما يحمل من فكر وفلسفة يؤمن بها بأسلوب شعري وهذا قد جعله لا يكتفي برسم الصورة الشعرية وإنما ((استعارة من الخطابة الكثير من وسائل البرهنة والمحاججة والاستدلال المنطقي))[١١] .

٥- اعتماد الخطابة على قوة العبارة وتوافق الفواصل وبلاغة الأسلوب قد أغرت الشعراء بالاتكاء إليها كلما وجدوا في ذلك وسيلة للتكامل والتطور في الإبداع وفي النتاج الأدبي المطلوب .

وبعد هذا الإجمال لعوامل ازدهار النزعة الخطابية ، ولكي نظهر مدى تواجد هذه النزعة في البناء الشعري ، سنسعى الى دراسة المقومات الخطابية لان تواجدها يتناسب طردياً مع الخطابية الشعرية وانعدامها يعني ان الشعر يسلك مسلكاً آخر قد تعلو فيه الشعرية او الدرامية او القصصية وتلك اتجاهات لا تقل أهمية عن الخطابية سواء في الدلالة او في الهدف المنشود من الإرسال الشعري .

المقومات الأساسية في خطابية الشعر

****

١- الأدلة والبراهين والحجج

لقد ذكرنا في معرض حديثنا عن الخطابة بأنها فن الإقناع ، والإقناع يستوجب الأدلة والبراهين والحجج وهذه الكلمات وان كانت تخضع لمدلول عام وشامل إلا إنها تختلف في المدلولات الدقيقة فالدليل وتقديم الإثبات قد ينفيه مستقبل هذا الإثبات باستعمال الاتجاه المقابل او المعاكس للقول المثبت ، وهذا من شأنه ان يقود إلى التناظر والجدل ، اما البرهان فأنه يقدم الإثبات والشاهد على هذا الإثبات وهو بذلك أقوى من الدليل إلا أنه قد يجابه ويصطدم ببرهان معاكس يخفف من تأثيره أو يفنّده ، ولكن البرهان حينما يصل الى الدرجة القطعية ويقنع الجميع سواء كان مرسلاً أو مستقبلاً ولا يمكن الرد عليه يكون عندئذٍ حجة مقنعة لها تأثير على أفكار المتلقي ولها خدمة في إيصال ما يريد المرسل إيصاله وتحقق الهدف من ذلك الإرسال ولما كان غرض الحجاج هو الاستدلال فأنه يعتمد على الوسائل المقنعة كافة وفضلاً عن اعتماده على الإثبات والبرهان فأنه يرتكز على اللغة وهذا ما يجعل ((أدلته لا تكون دائماً ظاهرة بل أحياناً مضمرة وهو ما يجعل العلاقات الحجاجية تخضع لشروط دلالية وتداولية على الخصوص))١٢

وفي معرض تقديم الادلة يقول الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات ١٣

أيها المشتهي فناءَ قريشٍ بيدِ اللهِ عمرها والفناءُ
قد عَمَرْنا قمت بدائلٌ غيظًاً لا تميتنَّ غيركَ الأ دواءُ
إن منا النبي الامـــــــي والصديق منا التقيّ والخلفاءُ

وواضح هنا استعمال اللغة التقريرية حيث يستعير الشاعر إحدى أهم مقومات الخطابة وهي تعداد الأدلة التي تحفز المستقبل على الاقتناع بها ، منها بيد الله عمرها والفناء ، منا النبي صلى الله عليه وسلم والصديق والخلفاء وهذه كلها أدلة على تقديم قريش ووزنها بين القبائل الأخرى ويظهر للقارئ بوضوح وكأن هذه الأبيات خطبة وضعت في قالب الوزن والقافية . فلا محاكاة ولا تصوير ولا خيال ولا ترميز ، وإنما سوق للأدلة الاثباتية وإعلاء للنزعة الخطابية .

وقد يلجأ الشاعر الى النصوص المقدّسة بوصفها نتائج للبراهين وحجج علائقية بين المرسل والمتلقي فكلاهما ينظر الى تلك النصوص نظرة تبجيل واحترام ، ولا اعتراض للمتلقي على النصوص التي تستند على النصوص المقدسة حتى اذا كانت تلك النصوص المستندة تخالف المنطلق العقلي وتحتاج الى برهان ، فالنصوص المقدسة خير برهان وأفضل دليل ، يقول عيسى بن عاتك الخطي وهو يصف انتصار فئة قليلة من الخوارج على جيش كبير قوامه من إلفي رجل بعد أن يضع سؤالا مفترضاً يشكك في قوله ويحاول ان يجد له الدليل والبرهان فيقول ١٤ :

ألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم باسك أربعونا

إن هذا السؤال منطقي إذ كيف يستطيع أربعون رجلاً من هزيمة ألفين فيكون الجواب :

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شكٍ على الفئة الكثيرة ينصرونا

ان قوة السؤال المنطقية بحاجة الى جواب قوي وهذا ما ألجأ الشاعر الى الاستناد على نص مقدس يتمثل بقدرة الله سبحانه و تعالى ونصره للمؤمنين بقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ((**يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين * وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا *))**١٥ إن هذا النص يمثل حجة غير قابلة للنقاش تدعم النصوص

المستندة إليها ، وإن مثل هذه النصوص الشعرية تنزع نزعة خطابية هدفها الإقناع أكثر من إظهار القيم الجمالية والتصويرية التي هي نزعات شعرية خالصة . وتجعل اللغة التقريرية متمازجة مع المستوى الإيقاعي بحيث تجعل التأثير في المتلقي تأثيراً عقلياً لا عاطفياً واقناعياً لا عفوياً ومن هنا فأن محاولة الإقناع القائمة على الأدلة والبراهين والحجج تقوي من النزعة الخطابية في أي جنس أدبي يقوم عليها .

٢- التركيز على الفكرة

لا يكاد أي نصٍ شعرياً كان أم نثرياً أن يخلو من الفكرة بوصفها ((المغزى الذي يلوح به الأثر))١٦ ، وهي الغاية التي يريد المرسل إيصالها إلى المرسل إليه ، وبالتالي فهي احد أركان البناء الفني واحد مقوماته الرئيسة . ولعل أهميتها في النثر تفوق أهميتها في الشعر لأنها في النثر غاية يراد إيصالها إلى المتلقي وتبتغي التأثير فيه والتحويل والتغيير إذا كان الهدف من الفكرة يتطلب ذلك التغيير ويسعى إليه ، أما في الشعر فهي وسيلة جمالية وسرّ مخفيّ يوسّع مدارك الخيال ويقرب بين الحقيقة والمجاز .

وحينما يركز الشاعر على توصيل الفكرة ويتخذها هدفاً يبغي الوصول إليه ، فأنه بلا شك سيعتمد الحقائق البعيدة عن الغموض والإيحاء والغرابة بلغةٍ يسودها الوضوح والاستدلال وهذا ما يجعله يقترب من لغة الخطابة ويجعل النزعة الخطابية ظاهرة وبارزة في قوله الشعري لأن من مميزات الخطابة إيصال الفكرة إلى المتلقي والتأثير فيه .

يقول كثير عزة محاولاً توصيل فكرة المهدية ورجعة محمد بن الحنفية الذي يرى الكيسانية أنه المهدي المنتظر وأنه اختفى في جبال رضوى وانه سيعود ليملأْ الأرض عدلا بأسلوب خطابي بؤرته غيبية الإمام ولغته تقريرية واضحة هدفها إيصال الفكرة بعيداً عن استعمال اللغة الشعرية ومحسناتها وهذا ما فسح المجال واسعاً أمام اقتحام النزعة الخطابية حتى ليبدو للمتلقي أنه يسمع خطبة أكثر من سماعه قصيدة فلنقرأ قول كُثيّر ١٧ :

ألا أن الأئمة من قريشٍ ولاة الحقِ أربعة سواءُ
عليّ والثلاثة من بنيهِ هم الاسباط ليس بهم خفاءُ
فسبطٌ سبط ايمانٍ وبرٍ وسبط غيبته كربلاءُ
وسبطٌ لا تراه العينُ حتى يقودَ الخيلَ يتبعُها اللواءُ
تغيب لا يُرى عنهم زماناً برضوى عندهُ عسلٌ وماءٌ

وقد تنبه بعض الشعراء إلى ضرورة المحافظة على آليات اللغة الشعرية وان كانت الغاية توصيل الأفكار لكي يبقى الشعر شعراً ولا ينزلق في خضم المقومات النثرية على حساب الشعرية وجمالياتها ((فمهما تخلص الشعر من القيود ومهما حفل النثر بخصائص شعرية تبقى هناك

فروق أساسية بين الشعر والنثر))١٨ ، فالشاعر الأموي الأخطل يريد إيصال فكرته عن الحكم الأموي وإنهم القادرون على إدارة شؤون الدولة دون سواهم فيزاوج بين المقومات الخطابية واللغة الشعرية بحيث يعلو الصوت الشعري ذو التأثير ألخطبي فلا يفقد القول الشعري رونقه ولا التأثير ألخطبي سحره ، يقول ١٩ :

حشدٌ على الحقِ عيّا فوا الخِنا أُنفٌ
اذا ألمت بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تدجت على الافاق مظلمةٌ
كأن لهم مخرجٌ منها ومعتصرُ
أعطاهم اللهُ جَداً ينصرون بهِ

لا جدَّ إلا صغيرٌ بعدُ محتقرُ
شمس العداوةِ حتى يستفادُ لهم
واعظمُ الناسِ أحلاماً اذا قدروا

فهنا يوجه الشاعر خطابه الى المتلقين وغايته إيصال الفكرة ولكنه رسم صوراً شعرية متعددة مستعملاً التشبيه والاستعارة وجعل من تلك الصور أدلة تدعم فكرته وتقوى من تأثيرها .

٣- اعتماد صيغة الاستفهام والتعجب

تعد صيغتا الاستفهام والتعجب من الصيغ المهمة في التركيب اللغوي لان التساؤل ((يقترب من العمق في التجربة الشعورية التي تقف وراء إنشاء السؤال الذي لم يأتِ من العدم وإنما نتيجة حركة ذا صيغة مبعثها الهواجس والأفكار والأحاسيس المختلفة))٢٠ ، وقد يرافق إنشاء التساؤل صيغة تعجبية إمعاناً في الاستغراب وتأكيداً للإنكار ، وتدخل الجمل الاستفهامية والتعجبية اللغة الشعرية والنثرية على حد سواء بوصفها صيغ معتمدة لا يمكن الاستغناء عنها ، ولكن دخول هذه الصيغ في اللغة الشعرية لا يبتغي دحض فكرة أو إثارة قضية عقلية أو تقييد رأي للخصوم بالدرجة الأساس بقدر ما يهدف الى محاكاة شيء أو تصوير حادثة أو أظهار مفاتن الإعجاب او توضيح حالة نفسية ضمن الإطار التصويري للخيال في محاولة للوصول الى رسم الصورة وبالقدر المستطاع من التكامل والجمال .

أما دخول هذه الصيغ في الجدل الخطابي فإنها تهدف الى إثارة القضايا الجدلية العقلية وتفييد رأي الخصم وبخاصة ((عندما تريد أن تظهر خصمك بمظهر المتناقض مع نفسه او مع ما يعتقده كل انسان ، وكذلك حين يتعذر ان يجيبك على سؤالك إلا بإجابة يُظهر فيها الهرب))٢١ .

ومن هنا فأن الشاعر حينما يعتمد هذه الصيغ بهدف تقييد رأي الخصوم وإثارة الجدل الفكري او العقائدي فإنه سيرفع بشكل عفوي او قصدي من النزعة الخطابية في شعره .

ولما كانت الفرق الإسلامية تنحوا هذا المنحى فإن شعراءها قد وقعوا تحت تأثير خطابية الشعر وبدرجات متفاوتة تتناسب مع الأهداف التي تقف وراء كل قصيدة تقال . فمثلا في قول الطرماج٢٢ :

كيف أرجي الحياة بعدهم وقد قضى مؤنسيّ فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يُخاف قد وثقوا

نجد ترسيخاً عقائدياً لدى الخوارج في حب الشهادة ومحاولة الفوز بها وتعميمها على الجميع على وفق اعتقادهم ، ولم يقف وراء هذه الأبيات هدف جمالي وإنما عقيدة يريد الشاعر تعميمها بأسلوب جدلي ينزع منزعاً خطبياً وشعرياً في أن واحد .

ويبني الكميت موقفاً جدلياً معارضاً للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك يقيمه على التساؤل والأدلة وجمع المتناقضات وفي مزواجة كبيرة بين الشعري والخطبي على خط توافقي باتجاه نقطة الدهشة والتأثير وبنسق يتتبع المؤثرات التي تجعل الخصم عاجزاً عن الرد على هذه الاسئلة بسهولة وبيسر ، يقول ٢٣ :

ألأهل عم في رأيه متأملُ وهل مدبر بعد الأساةِ مقبلُ؟
وهل أمة مستيقظون أرشدهم فيكشفُ عنه النعسة المتزملُ

كلامُ النبيين الهداةِ كلامُنا وافعال أهل الجاهلية نفعل !
رضينا بدنيا لا نريد فراقها على أننا فيها نموتُ ونقتلُ !
فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم ففيكم لعمري ذو أفانين مقولُ
أأهل كتابٍ نحنُ فيه وانتم على الحق نقضي بالكتاب ونعدلُ
فكيف ومن أنى وإذ نحن حلفةٌ فريقان شتى تسمنون ونهزلُ ؟
أتصلح دنيانا جميعاً ودينا على مابه ؟ ضاع السؤال المؤبلُ
كان كتاب الله يعني بأمرهِ وبالنهي فيه الكود فيه المركلُ
ألـــــــم يتدبر آية فتدّله على ترك ما يأتي أم القلب مقفلُ؟
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم فحتامَ حتامَ ذا العناءُ المطولُ؟ !

ونلمح هنا ان الشاعر لم يقف عند حدود التساؤل وكشف المتناقض وإنما اتكأ أيضاً على صيغة التعجب في أكثر من موقف ليؤكد من خلاله الإمعان في السؤال وشدة الاستغراب ولقد استعمل الشاعر الاستفهام والتعجب بشكل متناوب فكان التعجب معززاً للاستفهام وواقعاً في دائرة تأثيره حيث يمكن صياغة الأسئلة الاستفهامية من صيغ التعجب فمثلاً اذا كان كلام النبيين الهداة كلامنا فكيف نفعل أفعال الجاهلية واذا كنا نعلم بحتمية الموت فلماذا نرضى بالدنيا القاسية .
ولا شك ان جواب هذه الأسئلة يسيرة وليست عسيرة لأنها قائمة على الاستفهام الاستنكاري ولكن إثارتها تهدف الى التحريض المتكيء على التساؤل التحريضي والتعجب من انعدام ردة الفعل .
وحينما يأتي الأسلوب بهذه الطريقة الاستفهامية فأنه يعطي دفعة قوية للاستدلال والبرهان ومن ثم للنزعة الخطبية والوصول بخطابية الشعر الى مستوى رفيع جعلت هذا النص وكأنه يجمع كل السهام ليوجها الى عدوه ولا غرابة ان يتوعد الخليفة هشام بن عبد الملك الشاعر بقطع لسانه ويده كرد فعل على تأثير النصوص في النفوس .

ولو أراد القارئ نثر هذه الأبيات لاستخرج منها خطبة بكل ما تحتويه الخطبة من عناصر ومقومات وهذا دليل على أثر الاستفهام والتعجب القائم على الجدل والبرهان في النزعة الخطبية في الشعر .

٤- استعمال أسلوب الخطاب المباشر

لانعني بالخطاب هنا المصطلح ألقولي discourse المتعارف عليه في النقد الأدبي وإنما نعني به أسلوب المخاطبة المباشرة الذي يوجهه المرسل مباشرة إلى المرسل اليه بلا وسيط وبذلك فان المرسل إليه يتسلم الرسالة مباشر لأنه مخصوص في الإرسال ، وهذا النمط الخطابي إبداعي في جوهره لان يشخص المخاطب من خلال ((مخاطبة شخصية معينة اما عن طريق الضمير مباشرة او بالالتجاء الى النداء كموشر لغوي يقوم بوظيفة الاستحضار التشخيصي))٢٥ ، وحينما يقوم الخطيب بعمليه المخاطبة فانه يقوم بعرض الحالة ويحاول قدر المستطاع
تجنب الاعتراضات التي تجابهه من خلال التركيز على أهمية السماع والاصغاء وهذا ما يتطلب استعمال صيغ النداء وضمائر المخاطبة ، والجمل الطلبية وغيرها من الصيغ التي تتطلب المشاركة او الحضور ، والتي تسهم في إعلاء صوت الخطيب من جهة وترسخ ألنزعة الخطبية في النصوص الأدبية.
والشاعر حينما يعتمد هذه الصيغ ليعرض من خلالها حالة يريد إيصالها الى الملتقى ويدعوه الى المشاركة فيها فان سيقع تحت التأثير ألخطبي فتصبح خطابية الشعر ظاهرة في شعره بل قد

تكون مسيطرة عليه لاسيما في النصوص التي يكون فيها القصد هو السائد لأنه يقف وراء العلاقات التخاطبية ويسعى للوصل إلى المستوى التفاعلي في محاوله لتجاوز المستوى ألتبليغي _ يقول الشاعر ألاموى جرير وهو يستعمل الطلب وضمائر المخاطبة في وقفة أمام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ٢٦ :

أغثني يافداك أبي وأمي — بسيب منك إنك ذو ارتياحِ
فأني قد رأيت عليّ حقاً — زيارتي الخليفة وامتداحي
سأشكر إن رددت علي ريشي — واثبتَّ القوادمَ في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا — واندى العالمين بطون راح

حيث يظهر جلياً استعمال الصيغة الطلبية (اغثني) وضمائر المخاطبة (انكَ ، رددتَ ، اثبتَّ ، ألستم) وبذلك فان الشاعر اعتمد أسلوب الخطاب المباشر وظهرت الخطبية جلية في النص الى الدرجة التي تقربه من خطب الوفادات مع احتفاظه بالصور الشعرية المؤثرة ، وتتجلى الخطبية في تنوع المقاصد والوصول الى التأثير في المخاطب اما المقاصد فتتمثل نيل العطاء ومدح الخليفة وتمييز بني أمية على من سواهم وأما التأثير فيتمثل في تأثير المخاطب بهذا القول الى الدرجة التي قال فيه عبد الملك بن مروان ((من أراد ان يمدح فبمثل هذا البيت او ليسكت)) ٢٧ ، وبذلك أصبحت العلاقة بين القائل والمخاطب علاقة تفاعل وليس علاقة تعارض مع أفضلية للقائل لأنه صاحب المبادرة ((حيث لا يبلغ فعل المقول له في الخطاب فعل القائل فيه اذ يظل القائل هو المبادر في الفعل القاصد للمقول له وتوجيه هذا الفعل))٢٨ ، ويجمع عمران بن حطان بين الطلب والنداء ليبين في مخاطبة له مع زوجته جمرة رأي الخوارج في الموت ٢٩ :

إن كنت كارهة للموتِ فارتحلي — ثم اطلبي أهل ارض لا يموتونا
فلستِ واحدةً ارضاً بها بشرٌ — إلا يروحون أفواجاً ويغدونا
يا جمرُ قد مات مرداس وأخواته — وقبل موتهم مات النبيونا
يا جمرُ لو سلمت نفسٌ مطهرَّة — من حادثٍ ياجمر يعيينا
اذا لدامت لمرداس سلامته — وما نعاه بذاتِ الغصن ناعونا

ويلاحظ هنا علو صوت الفكر والعقيدة على العاطفة والنداء وان كان موجهاً الى جمرة زوجة الشاعر ألا أنه يشمل كل متلقٍ يؤمن بحتمية الموت .

وطغيان العقيدة على شعر الخوارج قد جعل شعرهم يختلف عن شعر غيرهم من حيث ضعف التخيلِ وقلة التصوير حيث نجد دائماً أن هدفهم العقائدي يطغي على الجوانب الشعرية ((فتكثر المعاني الدينية العامة أو المنبعثة من عقيدة الخوارج ومذهبهم في الكثرة الغالبة من أشعارهم وفي كل غرض أتجه إليه هذا الشعر وعالجه))٣٠ ، وان ذكرهم لهذه المعاني كان بهدف تقوية المستوى البلاغي على حساب المستوى الإيحائي ولو تأملنا النص المذكور أنفاً نجد توارد الجمل الخطبية البلاغية البعيدة عن التصوير الشعري والإيحاء الرمزي الذي تتصف به لغة الشعر وهذا ما جعل النزعة الخطبية تبرز في النص وتعزز من تأثيره الفكري أكثر من أي تأثير آخر ، ولذلك جعل الشاعر من جمرة المرأة وسيلة للوصول إلى الهدف (حتمية الموت) كما وجدنا إهمالا لعاطفته اتجاهها على الرغم من حبه لها ، ومجمل القول هو ان استعمال الخطاب المباشر بأشكاله المختلفة تعزز من خطابية الشعر في النصوص الشعرية ولا سيما في القصائد ذات المنحني الفكري والعقائدي وذلك لاهتمامه بعرض الحالة واستدعاء المتلقي للمشاركة سواء كان معترضاً أو مؤيداً لرأي القائل الذي يقف وراء إنشاء النصوص .

وبعد هذا العرض لمقومات خطابية الشعر يبقى سؤال ملحٌ وهو هل تضعف النزعة الخطابية الشعر أم تقويه ؟ والجواب على هذا التساؤل هو ان غاية الشعر التأثير فكما هو التصور والتخيل والرمز والإيحاء من عوامل التأثير الجمالي فان للنزعة الخطابية تأثير في الجوانب الفكرية وكما يتأثر المتلقي بالجمال فأنه يتأثر بالفكر ، ولكن إهمال اللغة الشعرية والاستعاضة عنها بلغة تقريرية بحته ستضعف بلا شكٍ من مقومات الشعر وخصائصه الفنية والأفضل في إنشاء النصوص ذات المقصدية الفكرية والعقائدية ان تزاوج بين إقامة الحجج والبراهين وعرض الأفكار من جهة واللغة الشعرية بما تحويه من استعارات ومجاز وإيحاء ورموز من جهة أخرى فيصبح عندئذ النتاج كامل البناء على المستوين الجمالي والفكري وان كانت طبيعة النص تفرض أحيانا علو هذه النزعة وخفوت تلك وفقاً للعوامل المحيطة بالنص والمساهمة في إنشائه .

الخاتمة ونتائج البحث
****

في ختام البحث أود أن أشير إلى أن خطابية الشعر قضية مهمة في دراسة بناء الأسلوب الشعري وان البحث وان تناول شعر الفرق الإسلامية فأن هذا الشعر كان أنموذجا للبحث وعدم التشعب والخطابية في الشعر لا يكاد إن يخلو منها شعر كل عصر بغض النظر عن الزمان والمكان لها طالما كان الهدف منها إيصال الأفكار والاستدلال عليها فهي وسيلة مهمة في التناظر والتعارض والتحاور وبسط الآراء وبالتالي فهي تعمل على المحاور كافة وفي كل الاتجاهات .
ولقد كان التركيز في البحث على القضايا العامة التي يمكن معرفتها عن خطابية الشعر وإما الجزئيات فهي بحاجة إلى بحوث تفصل الموضوع في جوانبه المختلفة ، ولقد حاولنا في هذا البحث أن نكشف الغطاء عن حلقة مهمة من حلقات الأسلوب الشعري والتي نجد أن هذه الحلقة لم تعط ما تستحقه من عناية ودراسة ولقد توصل البحث إلى نتائج يمكن إجمالها على النحو الآتي :

١- إن خطابية الشعر مظهرٌ من مظاهر الأسلوب الشعري كالسردية والدرامية والشعرية ولا تقل عنها في مجالات الإرسال والاستقبال وفي محور التأليف ومحور التلقي .

٢- تثبت خطابية الشعر إن الأجناس الأدبية على اختلاف أنواعها وإشكالها متجانسة ولا يمكن استغناء جنس عن الجنس الأخر وان كان مستقلاً في خصائصه ومقوماته .

٣- لقد أشار النقاد القدماء إلى هذه الظاهرة بوضوح وبينوا أهميتها وعلى الرغم من تلك الأهمية لم تنل ما تستحقه من الدراسات النقدية الحديثة .

٤- تقوم فكرة خطابية الشعر على مقدار تواجد مقومات الخطابة في الشعر وتسليط الاقناعي على التصويري .

٥- تسيطر الأدلة والبراهين والحجج والأفكار على الشعر ذو النزعة الخطبية لان هذه من مقومات الخطب وسيطرتها على الأبيات الشعرية ستظهر خطابية الشعر بوضوح .

٦- هناك صيغ تركيبية تتلاءم مع جمل الخطابة وتواجدها في الشعر يقوي من خطابيته ومن تأثيره الفكري بما يخدم المقصدية للمنتج والاستجابة للمتلقي .

٧- نظراً لأهمية المتلقي وتأثير البراهين والحجج في قبوله للنص من جهة وتأثير اللغة الشعرية بجماليتها من جهة أخرى فلقد حاول الكثير من الشعراء إن يمزجوا بين التأثيرين وصولاً إلى الإبداع والتكامل .

٨- تقاس نسبة وجود الخطبية في الشعر بمقدار تواجد آليات الخطابة في النسيج الشعري .

المصادر والمراجع

****

- القرآن الكريم .
- الأدب في عصر النبوة والراشدين – صلاح الدين الهادي / مطبعة الخانجي / القاهرة / ط٣ /١٩٨٧ م
- الأسس الابستمولوجية والتداولية – إدريس مقبول /عالم الكتب أربد / الأردن / ط١ /٢٠٠٦م
- اتجاهات الشعر في العصر الأموي – صلاح الدين الهادي / مكتبة الخانجي / القاهرة / ط١/ ١٩٨٦م.
- الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني / الهيئة المصرية / القاهرة / ١٩٧٠م.
- التناص في شعر العصر الأموي – بدران عبد الحسين – رسالة دكتوراه / الموصل / ١٩٩٦م.
- الحيوان – عمرو بحر الجاحظ / مطبعة مصطفى البابي / مصر / ١٩٤٠م .
- الخطابة – أرسطو – ترجمة عبد الرحمن بدوي / دار الرشيد / بغداد / ط١/ ١٩٨٠م.
- ديوان الأخطل – شرح مهدي محمد ناصر / دار الكتب العلمية / بيروت ، ط١ / ١٩٨٦م.
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات – تحقيق محمد يوسف نجم / دار بيروت للطباعة والنشر / ١٩٥٨م.
- ديوان كثير عزة – تحقيق إحسان عباس / دار الثقافة /بيروت / ١٩٧١م.
- ديوان الطرماح بن الحكم – تحقيق عزة حسن / دمشق / ١٩٦٨م.
- شعر الخوارج – جمع إحسان عباس / دار الثقافة / بيروت / ١٩٦٣م.
- الشعر والشعرية – محمد لطفي اليوسفي / الدار العربية للكتاب / تونس / ط١/ ١٩٩٢م.
- عيار الشعر / محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي – تحقيق عباس عبد الساتر – دار الكتب العلمية – بيروت ط ١ - ١٩٨٢
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام – طه عبد الرحمن / المؤسسة الحديثة للنشر الدار البيضاء / ١٩٨٧م.
- في النقد الأدبي الحديث – فائق مصطفى وعبد الرضا علي / دار الكتب للطباعة / الموصل/ ١٩٨٩م.
- اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي – محمد رضا مبارك / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ط١/ ١٩٩٣م.

- اللغة الشعرية في شعر حميد سعيد – محمد كنوني / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ١٩٩٧م.
- معجم النقد الأدبي القديم – د.احمد مطلوب / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ١٩٨٩م.
- منهاج البلغاء وسراج الادباء – حازم القرطاجني – تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه – دار الغرب الاسلامي بيروت ط.٣ ١٩٨٦ .
- النقد الأدبي الحديث محمد غنيمي هلال – دار الثقافة بيروت ١٩٧٣ .
- نقد الشعر قدامة بن جعفر تحقيق كمال مصفى – القاهرة ١٩٦٣.
- هاشميات الكميت من عمل يوسف هورتيز ليدن ١٩٠٤

الهوامش

****

١- الخطابة ص٢٩
٢- الشفاء ص٢٨
٣- نقلا عن معجم النقد الأدبي القديم ص٤٦٣
٤- عيار الشعر ص٣
٥- نقد الشعر ص٥٢
٦- الحيوان ج٣، ص١٣٢
٧- منهاج البلغاء ص٣٦
٨- الشعر والشعرية ص٥١
٩- الأدب في عصر النبوة والراشدين ص١٦٣
١٠- كتاب الشعر ص١٧٣
١١- التناص في الشعر الأموي ص٢٤٨
١٢- الأسس الاستمولوجية والتداولية ص٨٣
١٣- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص٨٩
١٤- شعر الخوارج ص ٦٢
١٥- سورة الأنفال الايه ٦٥
١٦- النقد الأدبي الحديث ص ٣٣
١٧- ديوان كثير عزة ص٢٤
١٨- اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي ص٢٣
١٩- ديوان الأخطل ص١٠٥
٢٠- اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي –مصدر سابق – ص٦٤
٢١- الخطابة – مصدر سابق - ص٣١
٢٢- ديوان الطرماح ص١١٨
٢٣- هاشميات الكميت ص٦٩-٧٠
٢٤- الأغاني ج١٥ ، ص١٠٣
٢٥- اللغة الشعرية في شعر حميد سعيد ص١٩٤
٢٦- ديوان جرير ص٩٨
٢٧- المصدر السابق ص٩٨
٢٨- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ص٤٢

٢٩- شعراء الخوارج ص٩٤
٣٠- اتجاهات الشعر في العصر الأموي ص١٩٧

Dr. Badran, Mahmoud Abdul-Hussein
Assistant Professor
College of Education
Kirkuk University

The Oratory Of Poetry In The Different Era. Islamic Groups In The Umawi

The oratorical aspect of poetry means the existence of the elements of oratory that are embodied by persuation which in turn depends on the evidences and proofs as well as the use of oratorical structures in poetry effectively .This could be placed under the harmony of the different components of literature and their interrelation . Traditional critics reffered to this phenomenon as well-know phenomenon in poetry especially in political poetry which is overwhelmed by polical ideas . The poetry of Islamic different groups is considered as a sample of this type of poetry .Therefore ,the present paper is an attempt to shed light on this phenomenon and revealing the integration and completion among the literature components especially between oration and poetry .